

فاوة الوصول في الفرقة الثالثة عشر :

الشيخ شامل

زهيم الفوفاز وشيخ المواهبين

الإستاذ برهان الدين الداغستاني

٣ - كان الحاج جبرائيل من أهل قرية « جرقط » صانماً ماهراً يجيد صنع كل ما تقع عينه عليه ، وفي ذات يوم من الأيام قصد إلى ساحل البحر الأسود ، وركب إحدى البواخر ، وتوجه إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج ، ثم رجع إلى مصر وأقام بها فترة رجع بعدها إلى القسطنطينية ومنها إلى بلاده الأصلية في الداغستان حيث كان الشيخ شامل فأنصل به وعرض عليه خبرته ومهارته الصناعية ، واقترح أن يقوم بصنع المدافع وصنعها محلياً ، ومقاتلة الروسيين بنوع أسلحتهم ، وأظهر شامل - رحمه الله - خوفه من الفشل في هذا المشروع ، وعارض فيه بادية ذى بدء ؛ ولكنه - تحت تأثير الإلحاح والإغراء - قبل المعاونة والمساعدة ورضى بالمساهمة في هذا المشروع ، وقدم كل عون ممكن لهذا الصانع الماهر الوطني المخلص ، وقام الحاج جبرائيل بأول محاولة لصنع المدافع ، فجمع بقايا المدافع المحطمة التي تركها الروسيون في بعض المارك السابقة ، وأذابها ، ثم صب منها مدفاً جديداً ، ولكن هذا المدفع لم يقو على تحمل أول تجربة أجريت له ، فتحطم بعد قذف القنبلة الأولى منه ، وكان في هذا الفشل الحافز الذي حفز شاملًا وإخوانه والحاج جبرائيل ومهارته ، وأعيدت المحاولة ، ونجحت ، ومن يومئذ أصبح في إمكان الشيخ شامل وجنوده الاعتماد على قوة المدفعية ومقابلة الروسيين بنفس سلاحهم الذي يقاتلونهم به .

وانطلقت وأنا أدير في رأسي هذه القنبلة الصغيرة التي فسرت لي تفسيراً عملياً معنى الحرية ، وظللت ساعة لا تبرح خيالي رجلاً الشيخ يضغط بنمليهما على بطن ذلك المقبع الذي ظن أنه لا يزال لقيته ما كان لما قبل من هيبة ا

الخصيف

وكان لصنع المدافع في بلاد الداغستان ونجاحها ، واستعمالها في المارك التي وقعت بعد ذلك أثر كبير سواء في تقوية الروح المعنوية بين المجاهدين المسلمين أو في إيقاع الخوف والرعب في قلوب أعدائهم من الروسيين ، وأهل البلاد الضالعين مع الروسيين ، وكان ذلك حوالي سنة ١٢٥٩ هـ و سنة ١٨٤٣ م .

٥ - كان الشيخ شامل - من يوم صنع المدافع في الداغستان واستعمالها في الحروب - يسير من نصر إلى نصر ، وذاعت شهرته ، وقويت شوكرته ، وهابه خصومه بعد أن أوقفهم في عدة معارك فاصلة ، كان لها وقع عظيم في نفوس الفريقين التجاريين ، ولجأت القوات الروسية إلى قلاعها وحصونها .

في هذه الأثناء كان زعماء الجراكسة وأعيانهم يرسلون الرسائل والكتب متتابعة بدعوة الشيخ شامل إلى بلادهم . لمساعدتهم على رفع نير الاحتلال الروسى عن رقابهم ، مظهرين الطاعة والاختلاص له ولدعوته الدينية الوطنية التي رفع رايتها في ربوع بلاد الداغستان .

وفي أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) عزم الشيخ شامل على اجتياز الحدود والذهاب إلى بلاد الجراكس ، فجمع جمعاً عظيماً من الجند الخيالة والرجلة وأخذ معه سبعة مدافع ثقيلة ، ومقداراً وافراً من المهمات والأسلحة الحربية ، واجتاز نهر « ترن » ونزل في بلاد « قبرطاي » الواقعة في الشمال الغربي للداغستان ، وأخذ ينشر تماثيله ومبادئه عن طريق الوعظ والإرشاد ، وأقبل عليه الأهليون مرحبين وأظهروا استجابتهم لدعوته وموافقهم لها ، وبينما كان الشيخ شامل يقوم بهذه المهمة وينظم الحياة الدينية والمدنية في تلك البلاد . جاءه النذير بأنه وقع في كمين دبره له الروسيون . إذ قطعوا عليه خط الرجعة ، وصدوا المالك وأفلخوا الحسور التي تصل ما بين بلاد الداغستان وأقاليم الجراكسة ، فأسرع شامل بالمودة من حيث أتى ، وبعد تصادم قوى بينه وبين الروسيين وتراشق بالمدافع استطاع الشيخ شامل أن ينقذ قواته ويجتاز بها نهر « ترن » ، ورجع إلى بلاده منهوك القوى ، بعد أن خسر في هذه الرحلة كثيراً من قواته ومهمات ، وكاد يصاب بهزيمة منكرة لولا حزمه وقوة احتماله ، ولولا مهارة الحاج يحيى قائد المدفعية في جيش شامل الذي استطاع أن يستخدم ما معه من المدافع الثقيلة أحسن استخدام في الوقت المناسب .

زوجته وبنته وكثيرات غيرهن من كرائم العقيلات ، وبنات الأشراف .

بقى هؤلاء الأسرى عند الشيخ شامل نحو تسعة أشهر ، وجرت المحادثات والمفاوضات بين الشيخ شامل والقيادة الروسية العليا لمبادلتهم بالأسرى المسلمين الذين كانوا في أيدي الروسين . وفي النهاية تم الاتفاق بين الطرفين على طريقة هذا التبادل ومكانه ، فقد اتفق الفريقان على اختيار موقع « انصفر » على ضفة نهر « بحك » . كما حصل الاتفاق على مبادلة الجنرال « جوجوزه » بابي الشيخ شامل جمال الدين الذي كان رهينة في أيدي الروسين من نحو ستة عشر عاماً ، تم مبادلة كل مسلم روسي ، وجمل لكل أسير زائد وللسيدات والأولاد من السبايا فداء محدود ، وفي أواخر سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) تم هذا التبادل في « انصفر » على ضفاف نهر « بحك » ، وأخذ المسلمون أموالاً كثيرة فداء الأسرى الزائدين والسبايا من النساء والأولاد . وكان يوماً مشهوداً عم فيه البشر بين الجميع .

٧ - بعد تبادل الأسرى في أواخر سنة ١٢٧٠ هـ تجاوز الفريقان بعض الشيء ، وخذت نار الثورة الوطنية ، والحركة الدينية الإصلاحية التي أشعلها النازي محمد الكمرأوى منذ نيف وخمس وعشرين سنة ، وكانت هذه الحادثة أشبه بهدنة غير رسمية بين الفريقين . كان قد مضى على نشوب هذه الثورة في تلك البلاد أكثر من ربع قرن من يوم أن رفع النازي محمد الكمرأوى علم الثورة ، وكان مضى عليها أكثر من عشرين عاماً من يوم تولى الشيخ شامل قيادتها .

فلما رجع أوائك المجاهدون إلى قراهم وضياعهم بعد طول الغياب عنها ، والتنقل بين مختلف البقاع وتلك البلاد الجبلية الوعرة وأوامر قراهم من الخراب والدمار ، وما حل بأهلهم من الفاقة والفقر وسوء الحال الاقتصادية ، لأن أكثر القرى كانت قد خلت من الرجال الأشداء القادرين على الأعمال الزراعية ، وتولى هذه الأعمال الشاقة النساء ومن هم في حكم النساء من الشيوخ القانين والأولاد الضعاف ، فساءت حال الزراعات ، ونقصت الحاصلات وانتشر الفقر والضيق .

ثم إنهم نظروا فوجدوا أنهم في ثورة متصلة الحلقات من نحو

٥ - كان لهذه الحادثة أثر بعيد في المارك التي تلقها ، فقد قويت الروح العنوية في الجيوش الروسية المحاصرة في القلاع المتناثرة هنا وهناك ، فقاموا بعدة كرات على قوات شامل ، ووقعت بين الفريقين مصادمات عنيفة ، وأخذت الحرب في بلاد الداغستان صبغة رسمية ، واسترعت اهتمام العالم أجمع ، وحشدت القيصرية الروسية أعظم قواها ، وأرسلت إلى الميدان جيوعاً كبيرة من خيرة جنودها ونظم كبار شمرائها القصائد الطوال في دعوة الناس إلى الجهاد في الداغستان ولكن شاملاً كان مع كل ذلك - كالمهد به - يعمل في صمت وهدوء وينفس الايمان والثقة بالله ، وبتصره لعباده المتخلصين .

ولما رأى مبلغ ما كان لصنع المدافع من نفع وتأثير حربي أخذ يشجع كل تفكير في صنع شيء جديد يمكن الاستعانة به في مقاومة العدو ، وفي سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ - ١٨٥٠ م) تمكن الصناع الداغستانيون من صنع البارود في بلادهم ، وأعدوا كل ما يلزم لهذه العملية من آلات ومعدات ، وأصبح في إمكان المجاهدين المسلمين استخدام البارود في حروبهم ضد الروسين من ذلك التاريخ ، كما يستعملون المدافع المصنوعة في بلادهم وبالأيدي الداغستانية من نحو ثمانية أعوام .

٦ - اتسع نفوذ الشيخ شامل في جميع بلاد الداغستان ، وسارت بإخباره الركبان ، وكثرت مصادماته الناجحة ضد الروسين ، وفي أوائل فصل الحريف . في اليوم المأسور من المحرم سنة ١٢٧٠ هـ (١٣ أكتوبر سنة ١٨٥٣ م) قام الشيخ شامل بحركة جريئة أوقعت الرعب في قلوب حاميات الروس في بلاد القوقاز كلها ، ففي ذلك اليوم ساق سيلاً عظيماً من قواته ومدفيعته ، واحتازها حدود بلاد « الكرج » وحاصر قلعة « زنطة » حصاراً محكماً قوياً ، واضطر حاميتها إلى التسليم في النهاية ، ثم بعث البعث والسرايا إلى القرى المتناثرة في تلك الجهات ، فأغارت عليها ، وأخذت الأسرى وغنمت الأموال الكثيرة . ثم رجع إلى مقر قيادته في داخل حدود الداغستان بعد أن قتل من الأعداء نحو (٢٠٠٠) قتيل وأسر نحو ٨٩٤ أسيراً ، وغنم من الأموال والأسلحة مقداراً عظيماً . وكان بين الأسرى الجنرال « جوجوزه » قائد حامية « زنطة » وبين السبايا

القبائل والأعيان إلى جانب الروسيين بما كانوا ينثرونه من الأموال الطائلة . فلما كان أواخر سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م) كان كثير من أهل الجهات النائية قد خرج على الشيخ شامل ، وأخذ يقوم ببعض الخدمات للقوات الروسية ، كشق الطرق وحراستها وما إلى ذلك ، وفي شهر رجب سنة ١٢٧٥ هـ (فبراير سنة ١٨٥٩ م) جاء الروسيون بقوة كبيرة ، وحاصروا شاملًا وأنصاره في مقر قيادته في قلعة « بكى درغية » .

ضيق الروسيون الحصار على شامل وأصحابه ، وقتلوه قتلا شديداً إلا أنهم لم ينالوا منه نيلاً لحصانة القلعة وسددة دفاع المجاهدين وبعد نحو أربعة أشهر من هذا الحصار تراجع الروسيون وفكوا الحصار عن القلعة ومن فيها ، فانهز الشيخ شامل هذه الفرصة ، وخرج مع جميع أصحابه ، ونقل كل ما أمكن نقله من المدافع والمهمات والأرزاق ، وذهب إلى قرية « ايشجلى » ورابط فيها إلا أن الروسيين لاحقوه هنا أيضاً ، وهاجموه وأحاطوا به ، وبعد أن استمر القتال بين الطرفين نحو شهرين اضطر الشيخ شامل — تحت تأثير قلة رجاله وسلاحه الذى بقى لديه — إلى الانسحاب من هنا أيضاً ، واتجه بأهله وعياله ومن رافقه من غلصى أصحابه إلى قلعة « غونيب » الحصينة ، وتحصن فيها ، كان ذلك في أول المحرم سنة ١٢٧٦ هـ (٣١ يولية سنة ١٨٥٩ م) .

٩ - تحصن الشيخ شامل بقلعة « غونيب » الحصينة ، ثم لحق به بعض المجاهدين المخلصين حتى بلغ عددهم نحو ثلثائة رجل من المحاربين غير النساء والأطفال من آل شامل .

ولكن ما ذا عسى أن يصنع هؤلاء الثلثائة رجل أمام هذه الجيوش الجارزة التى أحاطت بالقلعة إحاطة السوار بالمعصم ؟ فى هذه الأثناء صدرت إرادة قيصر الروس إلى قائد قواته فى القوقاز بضرورة القبض على الشيخ شامل حياً مهما كلف ذلك من عنق . ولهذا أخذت القوات الروسية تضييق الخناق على قلعة « غونيب » وفى الوقت نفسه طلب قائد الحملة الروسية من الشيخ شامل التسليم ، ووعده بالبقاء على حياته هو ومن معه من المجاهدين ، والنساء والأطفال .

(البقية فى العدد القادم)
رهبان البرين الراهبستاني

ربم قرن من غير أن تمتد اليهم يد بالمون والمساعدة من خارج حدودهم ، ومن غير أن يستطيعوا حتى الاتصال بخليفة المسلمين ليمرضوا عليه حالهم ، وما يعانونه من الشدة وسوء الحال .

لا بد أن هؤلاء المجاهدين — أو أغلبهم — فكروا فى هذا كله ، فأروا سوء الحال المنذر بأسوأ مصير ، فوهنت عزائمهم وتراخت وبدأ الناس يتسللون من حول شامل شيئاً فشيئاً ، ثم بدأت الحرب المعروفة بحرب القرم بين الروس والحلفاء : (الأتراك والاسكندر والفرنسيين) . فى النصف الثانى من سنة ١٢٧٠ هـ ، واستمرت إلى النصف الثانى من سنة ١٢٧٢ هـ ، ولكن الشيخ شامل لا يستطيع انتهاز هذه الفرصة المواتية . لا قدمنا من الأسباب ، ولم يستطع الحلفاء ، مد يد المساعدة للشيخ شامل لأن الطريق بينه وبينهم كانت مغلقة تماماً .

أقول هذا على الرغم مما جاء فى « لاروس » فى أثناء ترجمة الشيخ شامل من « أن الحلفاء لم يقصروا فى تقديم العون إلى شامل ، اذ كانوا يقدمون إليه ما يحتاجه من لوازم حربية » . أقرر هذا لسببين اثنين : الأول ان الطريق بين الحلفاء والشيخ شامل كانت مغلقة تماماً من جميع الجهات ، فلم يكن من الممكن الاتصال به من الخارج .

والسبب الثانى هو أن الذين أروا الثورة الشيخ شامل وذكروا دفاعتها ، وتبموا تفصيلاتها لم يذكروا شيئاً عن هذا العون الزعوم . على أنه لو كان حديث هذا العون صحيحاً رأينا شيئاً من الحياة والانتماش فى الثورة إبان حرب القرم ، ولكن على العكس من ذلك تماماً نجد شيئاً من العمود والحدود يعم أرجاء البلاد طول تلك المدة . إذا صرفنا النظر عن بعض الحوادث المتفرقة التى وقعت هنا وهناك فى فترات متقطعة . مما لا بد من مثله بين فريقين طال أمد القتال بينهما أكثر من خمسة وعشرين عاماً .

٨ - لما انتهت حرب القرم ، ووقع الروسيين بتروط الصالح مع الحلفاء فى باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ م و ٢٢ رجب سنة ١٢٧٢ هـ تفرغوا لقتال شامل ، ووجهوا كل همهم للقضاء عليه ، وانهاه حال الثورة فى جبال القوقاز التى طال عليها الأمد ، ولهذا نجد الروسيين يجهزون قوة عسكرية كبيرة مكونة من نحو (٦٠٠٠٠) رجل ويرسلونها إلى القوقاز ، ثم تناهت حملاتهم العسكرية بعد ذلك كما نشط جواسيسهم ودعاتهم لاستمالة بعض